

الاغسطينية والتصوف الاسلامي

القديس أوغسطين في عالمه الفكري واعتزافه

د. علي زيعور

1 - نظرة تماس عامة:

يعتبر القديس أوغسطينوس⁽¹⁾ قمة شاحخة في الفكر الوسيط. أخذ عنه بكثرة وتقدير سائر من أتى بعده في ذلك الفكر، ومن تدبّر وآمن. وليس غريباً أن نرى مفكرين من ميول متضاربة أحياناً يأخذون نصّه الواحد عينه فيؤولونه بأشكال مختلفة وبحسب ما يرومون وينفع نظراتهم.

طبع بطابعه العميق الفلسفة الوسيطة؛ ونستطيع القول أيضاً إنه طبع بطابعه ذاك العقيدة المسيحية عينها. فهو قد منّج المعتقد الإيماني، ونظر بتمذهب، وأخذ في بنية عامة شتى ما هو ديني. وبذلك شكّل إيديولوجية، وخطّ وجهة عمل ومسار، وقدّم العقيدة الدينية في جميعاوية مُحكّمة البنيان. تلك هي الأوغسطينية: إنها مزيج من الأفلاطونية والمسيحية أو من أفلاطون والكتاب المقدس. فقد جمّع صاحبها بين الثقافتين اليونانية واللاتينية؛ ومن خلالها رأى النصوص الدينية وفهمها وفهمها.

والقديس أوغسطين بخر في العلوم الدينية؛ وهو رائد وقدير. إنه شخصية متعددة الجوانب، غنية. وبسبب ذلك، أو مع ذلك، يجب أن يؤخذ كوحدة متراسة، وبشكل شامل وإزائي. ففهم الأوغسطينية صعب إن لم يُنظر إليها من حيث هي كلّ واحد، وجميعاوية واحدة.

2 - حياته، أهميتها في ولوج عمارته الفكرية:-

لا تنفصل حياته المعقدة بسيروراتها وتطوراتها عن فكره المتمثّل في عطاءاته الكتابية أو في إيديولوجيته وفي فلسفته الدينية. ولد في تاغسطا⁽²⁾، سنة 354 م؛ وتلك بلدة في نوميديا. كان السكان الأصليون وثنيين،

ومعظم العائلات فيها صاروا من ذوي الثقافة اللاتينية وانخرطوا في الدين المسيحي. كان أبوه باطريقيوس (Patricius) طاعناً في السن، وثنياً؛ أما أمه مونيكا فقد كانت شابة طيبة، دَمِيَّة الأخلاق، ذات فضائل جَمَّة، وشديدة التأثير في زوجها وابنها.

توقف عن التعلم في عامه السادس عشر، بسبب الحاجة المادية إذ لم يستطع الذهاب إلى قرطاجة. فعاش في وسطٍ من الشباب العاثر، وانغمس في اللذائذ والمتع رغم نصائح أمه العزيزة على قلبه... ثم تابع التعلم؛ وكان الأول في البلاغة، والأول في صفه ومتميزاً بمواهب عديدة، شغوفاً بالمطالعة، ذا قدرة بارزة على الاستيعاب، إلخ... بعد ذلك مال عن مهنة المحاماة قائلاً إنه كلما زاد الكذب فيها ازداد نجاحنا. عاش حياة زوجية مع امرأة من مستوى متواضع... وكان له ولد هو أديودات مات في عامه الثامن عشر مما سبب للوالد حزناً عميقاً لم يفارقه طيلة عمره الطويل. وكتاب «المعلم»⁽³⁾ هو ثمرة مناقشات الاثنين إذ كان الأب يشهد لابنه بالتفوق والذكاء المشتعل.

تلقى أغوستينوس المعمودية وهو في الثالثة والثلاثين على يد القديس أمبرواز في روما... ثم عاد إلى تاغسطا، وبعد ثلاث سنوات سم كاهناً في هيبونا⁽⁴⁾ مكرهاً أو كالمكره. لكنه لم يلبث أن أصبح بعد خمس سنوات الأسقف في تلك المدينة حيث بلغ مجداً رفيعاً، وحظي بشهرة وافرة، وغرق في أعمال لا تنتهي: كان يردُّ على أسئلة المناقشين والمفسرين، ويقم مقابلات، ويرد على أصحاب البدع، ويؤلف، ويتولى إدارة أعمال الكنيسة والمؤمنين...

3 - ثقافته المزجية التوفيقية:

قلنا إنه كان الأول في الخطابة ومواد أخرى... وقد علّم فيما بعد الخطابة، وكان أستاذاً بارعاً فيها. ثم إنه تضلع باللاتينية؛ أما اليونانية فإنه لم يجيها في طفولته وأيام التعلّم. لكن انتهى بأن أصبح يفهم هذه اللغة، ويعود إلى نصوص الكتاب المقدس المكتوبة بها، ويقابل بين هذه النصوص والنص اللاتيني وذلك لفهم الأكمل، وللمقارنات، وللتخلص من غموض أو نقص.

وعن موقفه من الثقافة الكلاسيكية فقد سبق القول إنه لم يكن ضدها، بل دعا لأن تتمثل منها ما ينفع لخدمة المسيحية مثل بثّ النزعة المسيحية فيها، وتبيان الوجه الانساني لها. علينا إذن أن ننقيها من السم الوثني. وهي تنفع لأسباب أخرى: ففيها ثقافة الديالكتيك والفلسفة، وفيها أيضاً العلوم اللغوية واللسانية الضرورية لفهم الكتاب المقدس وشرحه.

وهكذا دمّج أغوستينوس بين الثقافة المسيحية التي كانت تأخذ في التكوين والمفكرين الوثنيين الذين أعطوا وتفوقوا في اللغة والأدب والأخلاق العملية. وهنا نذكر بسرعة أن أوفيد Ovide، شاعر الحب واللذة، جعلوه نافعاً وبخاصة بعد تطهيره من بعض السموم الوثنية⁽⁵⁾.

يطرح تأثير الأفلاطونيين والفكر الأفلاطوني مشكلةً عند دراسة أوغسطين. فقد وقع بعض كتبهم بين يديه؛ وكانت باللاتينية وهي مفقودة اليوم مما يُبقي ينابيع الأوغسطينية غير واضحة في جانبها الأفلاطوني الشديد الأهمية كما سزى أدناه. ومن المعبر أن أ. طالع «الإيساغوجيا» (المدخل، في المنطق) حيث درس مشكلة الكليات، وأنه قرأ «التاسوعات» بتعمق ووجد فيها مفاهيم أساسية كثيرة مثل: فكرة الله الكائن الأسمى الأبدي، فكرة النفس، والجَدَل الصاعد إلى الأعلى، فكرة الكلمة (لوغوس) في الله وأنها الله، فكرة أن الشر هو النقص، الخ... إلا أن أوغسطين (أ.) لم يوافق الأفلاطونيين على كل شيء، فهو لم يقبل منهم فكرة خلود الزمن؛ وذلك سبباً خَفَّفَ من استناده على الأفلاطونيين الجدد. وهنا يطرح السؤال الأساسي والمشكّل: هل أوغسطين مسيحي قبل أن يكون أفلاطونياً، أو هو بالعكس كان أفلاطونياً ثم انتقل إلى المسيحية؟ سوف نرى أدناه قيمة هذا السؤال وصعوبة الرد الموضوعي والإجابة اللامتحيزة.

وهناك ركيزة أخرى في ثقافته نابعة من المذهب المانوي. يقول المانويون بالعقل، وأن مبدأ العالم اثنان: الخير والشر... والأهم أن كاتبنا بقي مدة تسع سنوات معهم، وتخلّى عنهم قبل عامه الثلاثين بعد نقاش مشهور مع مفكرهم الأكبر فاوستوس. بعدئذٍ قال عنهم أ. إنهم متكبرون، حسيون؛ وهم يتغفّون بسلطة المسيح، ويدعون امتلاك الحقيقة. وكان لهم كنائسهم وأساقفتهم. وهم قسبان: السَّماع والمنتخبون (المتنجبون).

4 - مؤلفاته، عطاؤه المكتوب وأسلوبه:

يُعَدّ له حوالي 200 رسالة و500 موعظة. هناك 113 مطولاً. والضياح طال الكثير من أعماله؛ هنا نذكر له: الاعترافات (مترجم إلى العربية)، والمناجيات، ومحاورات، والمعلم (مترجم إلى العربية)، ومدينة الله (مترجم إلى العربية)... كما أنه كتب كثيراً في دحض البدع؛ وله: في الثالث، في العقيدة المسيحية، في المعمودية، في الحياة السعيدة، (De Beata vita)، ضد الأكاديميين، في الموسيقى، الخ. ولنتذكر كتاب الاستدراكات (Retractationes).

يمتاز أسلوبه بالقوّة، وفيه جزالة. وكذلك فإن في أسلوبه إطناب، وتفخيم: فهو يعيد ويكرر، ويستعمل تشبيهات كثيرة. وعنده غزارة في المجازات. لذا فإن لغته خطابية، وهو يهتم بالبيان اهتماماً ملحوظاً. وباختصار، فهو كالأدباء قبله ضليع في اللغة، وسيد من أسياذ الكلام الجميل...

5 - خصائصه النفسية وبعض خصاله:

«الاعترافات» يتحدث عن حياة مؤلفه من أيامه الأولى حتى المعمودية. ومن خلال ذلك السّفر نستنتج شخصية الكاتب: هو شابٌ مُتَزَن، أُمِّلُ للتأمل والهدوء. لم يفقد هيئته حتى عندما انزلق؛ جدّي في سلوكه؛ وتفكيره رصين. كما يتبيّن أنه كان طموحاً، يحوز محبة وإعجاب أصدقائه ومعلميه... كان يُحِبُّ أن يُحِبَّ.

ولديه قوة هائلة على الاستيعاب والبحث والاطلاع المتشعب. ويظهر « الاعترافات » أن كاتبه أصيب بأزمات صحية عدة منها أوجاع في المعدة وأخرى في التنفس عندما كان في الثانية والثلاثين. ولعل أسباب تلك الأزمة نفسية. بينما ظن البعض أن أ. كان ضعيف البنية، هزياً تؤهله للتصوف. لكن دحض ذلك الظن يحصل بتذكر أنه وضع مؤلفات غزيرة، وقام بتنظيمات وإدارة شؤون كثيرة ومجابهة أصحاب البدع والاختصاص من أمثال اتباع دونات (Donat) ⁽⁶⁾، وبيلاجيوس (Pélage) ⁽⁷⁾، والمانوية، إلخ... واستمر ذلك العمل الشاق طيلة أربعين عاماً.

وكان أ. شخصاً أميل للانعزال في شبابه، وللاعتدال في الحكم على قضايا؛ شغوفاً بالعلم والتعلم، ذا موهبة في الغوص، والتمثل والتذكر الدقيق. فهو، مثلاً، يحدث بتفاصيل دقيقة جداً باقية في ذاكرته. ونجد في « الاعترافات » كاتباً إذا تكلم عن ماضيه يبعث فيه الحياة، ويجعل القارئ يعيش الأحداث والمجريات التي عاشها المؤلف... وهو ذو حساسية مفرطة، وعاطفي. فالعاطفيات عنده ملحوظة فيما كتبه عن طفولته، وأفكاره، وأحاسيسه؛ أو عن أحزانه على وفاة صديق، ثم على وفاة ابنه أديوداست... ويشدد مؤرخو أوغسطين على أنه كان صاحب قلب واسع، يحب بقوة وتدفع، ويكن عاطفة المحبة للناس جميعاً. وكان باستمرار يشكو خوفاً من آثامه مما يجعله في حديثه عن ذنوبه يتوجه إلى الله بعمق وبصلوات حارة، وإلى الناس لاشهادهم على ما كان فيه وما صار عليه ومن ثمت الاقتداء به والاهتداء مثله.

6 - تحوله إلى المسيحية:

يقول نيتشيه إن الفلاسفة يدعون أنهم يبلغون اليقين (أو الحقيقة التي يصلون إليها ويعلنونها) بعد بحث هادئ، وتنقيب، أي أنهم يزعمون اللجوء للاستدلال والمناهج العقلية بينما يكونون، في الواقع قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه صدفة أو بالحدس أو ما إلى ذلك من وسائل مُسبقة وغيرها. ليس كلام نيتشيه هذا بدعة، ولا هو عبثي. فالقضية معروفة في حضارات وثقافات كثيرة؛ بل وهي قضية معروفة في فعل الإرادة وعند اتخاذ قرار عند هذا الفرد أو ذاك. وكلام نيتشيه هل ينطبق على أ. في انتقاله إلى المسيحية وأخذ القرار النهائي في ترك الوثنية؟ ذاك موضوع نال كثرة من الأبحاث المتجاذبة؛ وكانت الأجوبة متناقضة. لكن الثابت عند من يرى المسألة من خارج ويهدؤ أن مؤيدي القديس أ. هم مسبقاً يؤيدون الأطروحة التي تقدمه متفوقاً صافي النوايا في طريقه الطويل بحثاً عن الحقيقة التي وجدها عند نهاية التحليل والنظر في المسيحية. وفي جميع الأحوال، ما هي الآن محطاته في مساره الفكري؟

أ - بحثه عن الحقيقة في الكتاب المقدس، المحطة الأولى: يقول أ. في « الاعترافات » أنه كان متحمساً أشد الحماس لبلوغ حقيقة يقينية. وقد تناول الكتاب المقدس وهو في التاسعة عشر؛ فلم يجد فيه مبتغاه إذ بدا له أسلوب الكتاب غامضاً، وصدمته المفاهيم التشبيهية في العهد القديم حيث يجري الكلام بكثرة عن حركات أو

غضب الله ورغبته في قهر أخصامه أو عن ندمه وقساوته في الانتقام... وقال أ. عن الكنيسة إنها صبيانية، وفيها سذاجة وسطحية أو بساطة عقل؛ أما تعاليمها فأشبه بقصص امرأة عجوز، ثم هي قاهرة وسلطوية. ولنتذكر أن أ. كان آنذاك ما يزال غارقاً في رغائبه العنيفة، مهتماً باشباع غرائزه وامتعه الحسية.

ب - المحطة الثانية، في المانوية: بقي في المانوية تسع سنوات (373 - 383)، وكان اعتنقها شغفاً بالعقلانية التي فيها إذ كان المانويون يعتمدون على براهين عقلية في هجومهم على الكتاب المقدس ويزأرون من القصص الواردة عن الأنبياء. كما كانوا يلجأون في مجوهم للعقل والأدلة لا إلى الإيمان المطلق. وكذلك فإن تقاليدهم الأخلاقية كانت توحى بالثقة والاطمئنان... وطيلة الفترة التي أمضاها أ. في المانوية بقي في درجة السَّماع إذ هو لم يرتفع إلى درجة المنتخين. لقد ارتضى القديس من المانوية شكلها العام: منهجها، والمبدءان الموجَّهان للعالم، واعتبار الله جسماً منيراً، والنفس جسماً لطيفاً، وعدم جواز قتل الحيوان... من جهة أخرى، لاحظ أ. النواحي الكثيرة اللامقبولة في المانوية وفي جميع الأحوال فإنه تركها بعد مناقشته لِفَاوَسْتُوسْ (Faustus) الذي بدا ناقص العلم ضعيف البراهين غير مقنع لعقل أوغسطين المتعمق المحاكم. وهكذا راح أ. يتهم المانوية بعدئذٍ بأنها غير عقلانية، وغير جدية بالاتباع لأنها لا تشبع العقل الذي هو سبب اعتناق أ. لذلك المذهب الشهير. وهكذا قال إن العقل دفعه للاهتمام إليها، وأن العقل هو ما أبعد عنها ودفعه لتركها ومن ثمت للانتقال إلى محطة ثالثة في البحث عن الحقيقة.

ت - المحطة الثالثة، المذهب الشكّي: عرف المذهب الشكّي (الشكّانية) من خلال كتاب المقالات الأكاديمية لشيشرون. وبقي ثلاث سنوات يشكّ في كل شيء، ولا يوافق إلا بعد أن يظهر له اليقين التام. لكن الحقيقة كانت دائماً عنده بعيدة المنال. وبقي الأكاديميون أصدقاءه، لكنه لم يسايرهم في شكه في العلوم المضبوطة. فهو لم يرتاب في أن $3 + 5 = 8$ ، ولا في وجود الله؛ وبقي محافظاً على الأخلاق وقيّمها ونظّره إليها. لذا نستطيع القول إنه كان بعيداً عنهم حتى وهو معهم؛ وهذا ما يجعلنا نراه من اتباع الاحتمالية (المذهب الاحتمالي) نظير شيشرون على سبيل المثال. بل حتى هذا المذهب الأخير لم يأخذه أ. في كليته وفي قضاة وقضيضه... في هذه الأثناء المترججة كان يلتقي أسقف ميلانو، القديس أمبرواز.

ث - بحثه عن الحقيقة في الأفلاطونية المحدثّة: وقعت صدفة في يد صاحب «الاعترافات» بعض كتب الأفلاطونية المحدثّة المكتوبة باللاتينية. فقال إنه وجد فيها ما يشبه القول المستهل في إنجيل يوحنا: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كلُّ به كَوْنٌ...» وسوف نلاحظ أنه أخذ من فلسفتهم الكثير؛ إلا أنه نَقَحَ وَغَيَّرَ في مفاهيم وأفكار حول الزمن، والله، وخلق العالم، والعقل...

ج - تحوله الأخير، الحقيقة في المسيحية الأفلاطونية: رأينا أن أ. درس الكتاب المقدس في سنّ الـ 19؛ ثم تحوّل إلى المانوية حيث بقي 9 سنوات؛ ثم اتبع الشكّانية مدة 3 سنوات؛ ثم ألقى عصا ترحاله الفكري وهجرته

في دنيا الأفلاطونية المحدثه، وبعدها في الأفلاطونية المسيحية أو المسيحية والأفلاطونية معاً. وتقول « الاعترافات » إنه كان يتلهف على بلوغ اليقين وعلى الاستقرار عند حقيقة يطمئن إليها؛ وأثناء ذلك كانت تتوطد علاقته مع أمبرواز الذي كان يملأ الفكر ويشغل المفكرين والمؤمنين. وتلك الصلات الوثيقة أدت إلى قيام تفاهم بين الصديقين حول كثرة من الأفكار والعقائد. ذاك كان يسهل انتقال أ. رويداً رويداً إلى المسيحية. فقد صار يعتقد أن الحقيقة ليست من عمل العقل المتشدد، ولا هي نتيجة براهين واستدلالات منطقية...

آمن بالمسيحية. وخضع للإيمان. كأنه تعب من السير، فاستسلم للدين. هنا تطرح مشكلة النوايا مرة أخرى ومرات. فهل القضية استسلام فعلاً للإيمان أو هي تعب ثم رضوخ؟ هل القضية تعبير عن دعوة للحاق به أو خطة للاقتداء به أي للانتقال إلى المسيحية؟ ومهما يكن فإن أ. يروي اهتدائه بوصف بليغ؛ كان ذلك في حديقة في ميلانو، وكان معه صديقه أليبيوس (Alypius). يورد في « الاعترافات » هواجسه حينذاك، وصعوبات التحول، وكيفية دفعه لنفسه إلى الاهتداء، وتغلبه على المقاومة الداخلية وحواجز البدن وما يشده من رغبات في العالم المادي. ويتابع وصف تلك الحالة النفسية من التردد حتى يصل إلى القول بأنه سمع من بعيد صوت صبي أو صبية ينادي: خُذْ أو اقرأ!!! (Tolle! lege). عندئذٍ أسرع إلى الكتاب المقدس وفتحه فإذا عينه تقرأ آية هي: ﴿ولا تعيشوا بالقصوف والمضاجع... ولا تهتموا بأجسادكم لقضاء شهواتها...﴾. وفي ذلك الحين عينه جاء أليبيوس وفتح الكتاب وقرأ حيث كان قد وصل أوغسطين، وكانت تتم النص تقول: «ومن كان ضعيفاً بالإيمان مدّوا إليه يداً...»

وأخبر أمه عن حاله الجديد واهتدائه المسيحية؛ ففرحت وشعرت بغبطة لا توصف... ثم راحت تبحث له عن زوجة. وتغيرت أفكار أ. ومعتقداته وسلوكاته. هنا، ومرة أخرى، يطرح السؤال السابق عن نوايا المؤلف: هل الإيمان سبق العقل؟ هناك أكثرية اليوم تتفق على أن العقل عنده سبق التدين بالمسيحية أو أن العقل هو الذي مهد لذلك التحول الذي يعتبر، بمنظور تلك الأكثرية من مؤرخيه، جذرياً من جهة وصادقاً لا يشوبه أدنى ريب من جهة أخرى.

7 - الشك في صدق اهتدائه المروي بوعي وكخطة:

كان نافيل (1872) أول من شكك بنوايا ورواية صاحب « الاعترافات » في تحوله، وقال: إن مشهد البستان في ميلانو مختلق أو هو منسوج مروي بعد التحول الفعلي، وأن أوغسطين تحول إلى الأفلاطونية المحدثه لا إلى المسيحية. ومن الذين يكذبون تلك المروية آخرون كثيرون نذكر منهم: بواسيه (Boissier) في سنة 1891؛ وقبله هارنك (Harnach) (1881)؛ ولوفز (Loofs) (1913)؛ وألفارك (1918)... أمثال هؤلاء يقولون إن أوغسطين عاد إلى المسيحية التي كان قد اعتنقها منذ طفولته، بتأثير أمه أو بغير ذلك؛ أو إنه لم يهتد إلا بعد أن ماتت تلك الأم العزيزة على قلبه والتي كان حزنه عليها شديداً... ونحن هنا نلمح؛ لا نفصل ولا نفضل موقفاً.

فعدنا من الصوفيين الذين قالوا ما قاله القديس أوغسطين كثرة كثرة؛ وكلهم يؤكدون أو يخبرونا بثقة واطمئنان كاملين أنهم اهتموا إلى التصوف عن اقتناع تام وبعْدَ نظر وإعمال فكر⁽⁸⁾. والذين يصدّقون أ. هم الغالبية، والأقوى. أهمهم: بورْتاليه، وبُوابيه (Boyer)، وجِلْسُون، وليه بلون... يرونه حسن النية، صادقاً كل الصدق؛ وإنه مسيحي لا نصف مسيحي ونصف أفلاطوني؛ ويردّون شتى الاتهامات في مراميه ومعتقده واعترافاته. فمثلاً يقول بوابيه ما خلاصته: ليس حقيقياً أنه تحول إلى مسيحي لأنه كان أفلوطينياً محدثاً؛ وأنه لمن الأصح القول بأنه أصبح أفلوطينياً محدثاً لأنه كان مسيحياً. يعني هذا أنه اعتنق الأفلوطينية، وبقي عليه ليعود إلى المسيحية الايمان بالمسيح فقط. فالأفلاطونية أرشدته إلى الله، وطبيعته، وصفاته، والبراهين على وجوده⁽⁹⁾. ونكرر هنا أن صاحب «الاعترافات» دُهِش من وجود كلمة لوغوس (الكلمة) في الأقاليم الثلاثة، ومن التشابه بين افتتاحية انجيل يوحنا واللوغوس عن أفلوطين وفي الفلسفة اليونانية⁽¹⁰⁾.

8 - البراهين على وجود الله في الأوغسطينية:

اليوم، إن بدت صعبة قضية إثبات وجود الله بأدلة عقلية فإنها لم تكن شاقة في الفلسفة الوسيطة أو عند القديس أوغسطين حيث تحتل فكرة الألوهية منزلة أولى ومنطقاً في الفعل المتفلسف. وقد رأى أ. أن منزلة أولى يجب أن تخصص في نفسه وفي حياته وفي فكره لله؛ وقال مشدداً أنه لا يجوز لأحد أن يجهل الله بل ولا يستطيع أحد ذلك. ومن لا يهتم بتلك القضية فهو انسان ضالّ. إن من يتأمل الطبيعة والمخلوقات لن يشك بوجود الله وتدبيره للكون. ووجود الله أمر بداهي عند ذي القلب الطاهر، فمن لا يؤمن بوجود الله مسبقاً لا يستطيع أن يثبت له أحد ذلك الوجود. ويتابع أوغسطين أفكاره فيقول إنه لم يشك قط بوجود الله حتى عندما كان غارقاً في الشك. لكن ما هي براهينه؟

اتبع منهجاً نقطة انطلاقه العقيدة أو الإيمان. فهو يؤمن كي يعقل⁽¹¹⁾؛ والايمان قبول عقلي لحقائق أتى بها الكتاب المقدس دليلها هو المعجزات، وأقوال الأنبياء، والشهداء. وبذلك أو تكراراً مختلف الصيغة، فإن أ. يوفّق بين العقل والنقل ويفهم العقل مقيداً بالإيمان وبحقائق الكتب المقدسة. والبراهين التي نراها أدناه يقدمها أوغسطين المؤمن بوجود الله ثم الباحث بعدئذٍ عن أدلة تؤكد إيمانه وتدعمه.

أ - البرهان الأول، الانطلاق من الحقائق الثابتة: الحقيقة معرفة ثابتة؛ أو هي علم أبدي أزلي ومثاله أن خمسة أقلام + خمسة تساوي عشرة أقلام. فبها النتيجة دائماً هي هي، واحدة، خالدة. وفي كل زمان ومكان يجب أن تكون بتلك الصفات الواحدة الخالدة. والمثال على حقيقة فلسفية هو قولنا: يجب البحث عن الحكمة؛ ويعطي أ. مثلاً على حقيقة أخلاقية هو قولنا: يجب أن يأخذ كل ذي حق حقه. تلك الحقائق لا تأتي من الحواس، ولا تصدر عن الأشياء والظواهر. إن الذي يعطينا الحقيقة الثابتة يجب أن يكون هو ثابتاً، أبدياً؛

ويجب أن لا يكون في العقل لأن العقل ينفعول ويتجزأ وهو ناقص ويخطئ... وإذن فإن الحقائق الثابتة لا تفهم إلا بحقيقة أسمى تكون ثابتة أزلية هي الحقيقة التي ندعوها: الله.

ب - البرهان المنطقي من الشك: الله إذن، بحسب ما استخلصنا من البرهان الأول، هو العلة الكافية لكل حقيقة تمثل في الفكر؛ وحتى الشك نفسه هو نقطة انطلاق تستعمل كدليل على وجود الله. هنا يقول أ.: إذا كنت أشك فعندي حقيقة (والله هو العلة لهذه الحقيقة ذاتها أيضاً)؛ وأنا لا أستطيع أن أشك بأني أشك. واذن فأنا متيقن من أني أشك. وبالتالي إذا كنت أشك فالله موجود. إن وجودي أنا كحقيقة يستلزم وجود الله.

ت - البرهان المنطقي من النظام في الكون: يستلهم أوغسطين برهانه هنا من القديس بولس في قوله إن من يتأمل الكائنات ونظام الكون البديع يرتفع من ذلك التأمل إلى القول بخالق مبدع للكائنات وللعالم. ويرى أ. أن المخلوقات لا تبقى على حالها، فهي تتغير وتنمو وتغنى. ولذا علينا التساؤل عن علة ذلك، ويرد بالقول: إنه الله..

ث - البرهان القائم على النظر في الرغبة بالسعادة: في الإنسان دافع لنشدان السعادة؛ وذلك أمر موجود عند كل إنسان، وملتصق بالطبيعة البشرية، وشامل. ويقول أ. عن تلك الرغبة ربما كانت حيناً إلى السعادة التي فقدها آدم... وهذا الدليل على وجود الله هو، كغيره، مما رأيناه أعلاه، قائم على مبدأ العلية وتطبيق لذلك المبدأ: فالمؤلف ينطلق مما يراه حقيقة ثابتة كي يرتفع الله. إنه يقلد أفلاطون، وأفلوطين.

9 - الثالث؛ المسيح في الأوغسطينية:

بدا الثالث في المسيحية مشكلة صعبة للقديس أ. فأولاهها جزءاً هاماً من وقته وفكره وقلمه. وفي ذلك المجال فإنه نظم وبرهن؛ أو أنه حاول العقلنة وسعى للمنهجة أو للمذهبة... وقدم هنا نظرات، بعضها خاص به. وقال إن الثالث ليس هو في الله. الثالث هو الله؛ والله ثالث. وليس ذلك خاصية مضافة على الله، بل إن طبيعته هي أن يكون مثلثاً. ثم يذهب أ. مفتشاً عن مشابهات في الطبيعة وغيرها، فرأى التثليث في: أ/ الفلسفة: إنها مقسمة ثلاثياً أي إلى فيزياء ومنطق وأخلاق. ب/ عمل العين حيث نجد الشيء المرئي، وانطباع ذلك المرئي في العين، وانتباه الفكر الذي يوقف النظر على ذلك الشيء طالما رغبنا في النظر إليه. ت/ وأهم تشبيه رآه أوغسطين هو الموجود بين الثالث الإلهي والتقسيم الثلاثي للنفس (إرادة، عقل، ذاكرة).

وقبل أن يعتنق المسيحية كان أ. يعتقد أن المسيح إنسان كامل ذو حكمة فائقة. وبعد أن اطلع على بولس آمن أ. بأن المسيح هو الله المنبثق عن الآب منذ الأزل، والمخلوق كإنسان. وراح يشدد على أن المسيح وسيط بين الخطاة والعدل الخالد، ولذا توجب أن تكون للمسيح طبيعتان إذ لو كان له طبيعة إلهية فقط لابتعد عن البشرية. ولو كان له طبيعة إنسانية فقط لابتعد عن الإله.

... لقد كان الله في أساس الأوغسطينية وصلبها بقدر ما كان الأساس في حياة أوغسطين نفسه. والله، في

ذلك المنظور ، هو الأبدى الدائم اللامتغير ... وهو لا يخضع لزمان إذ لا زمان قبله أو بعده ؛ وهو الحياة التي تحيا بنفسها ، والحقيقة الأحق ، والجمال الأجل ... والانسان عاجز عن فهم صفات الله ووصفها . وما قاله المؤلف هنا ما يزال باقياً في العقيدة الكاثوليكية ، ولا جدّة كبيرة في نظراته . وإذا كان الانسان هو إما عاقل وإما قوي وإما كامل ، فإن الله ليس عاقلاً ولا قوياً ولا كاملاً بل هو هذا العقل وهذه القوة وهذا الكمال هي كلها الله . يعني هذا أن ليس لله صفاتاً بل هو هذه الصفات . إن الله هو ما هو له ؛ إنه ما هو عنده ؛ إنه ما يملك . ويكرر أ . أن الله غير مادي ، وخالق من لا شيء وبدون أن يكون أمامه مثال يَخْلُق بموجبه ولا مادة مسبقة ؛ فقد قال للأشياء كوني فكانت . وعلم الله ، في الأوغسطينية ، مُسَبِّق مطلق مستقل عن الحوادث وعن التغير . والله هو المعلم الداخلي ، وشمس العقل ، وحياة النفس ، والفضيلة الخالدة الأبدية ، واللذة الأسمى . الله محبة ؛ وليست المحبة صفة من صفاته بل هي الله نفسه . المحبة هي ماهية الله ، ونعمة النعم ، وأساس كل الفضائل . وللمحبة شكلان : حب الله ؛ وحب الناس الصديق منهم والعدو بحيث يجب سد حاجتهم والتخفيف من آلامهم ...

10 - خَلَقَ العالم والزمان :

ليست المخلوقات من الله ؛ فلو كانت منه لكانت مثله ثابتة أبدية . هي مخلوقة من عدم ، وبمشيئة الله وعن طواعية ... وليس الخلق فيضاً . وإذ هي خُلِقَتْ من عدم فإن فيها إذن نوعاً من اللاكائن ، ونوعاً من العدم ومن النقص مما يولد في كل مخلوق حاجة للإكتساب ، ويجعله لا يبقى بل يتغير ويفنى . هذا النقص هو السيء ، أو الشر .

لم يكن الزمان قبل وجود العالم ، فقد بدأ الزمان مع بدء الأشياء ولا طائل من الأسئلة التي تدور حول ماذا كان يفعل الله قبل خلق العالم . ولماذا خلق الله في تلك اللحظة وفي تلك المدة ؛ وهل توقف عن الخلق منذ اليوم السابع ؟ هذه الأسئلة لا معنى لها لأنه ليس هناك زمن كان قبل الله ولا أمامه أو خلفه ... وتلك أسئلة ناجمة عن تخيلة لا تستطيع الصعود فوق الحسي . لقد تَمَّ خَلَقُ العالم في سبعة أيام ، تقول الكتب المقدسة . ويقول أ . إنه لا يجب أخذ هذا النص إلا بمعناه المجازي . فالخلق حصل في لحظة واحدة . وسبعة أيام هو تفصيل لتلك اللحظة ، وتوضيح لمخيلتنا الضعيفة . لقد خلق الله سوياً ومعاً وبشكل متزامن في آنٍ واحد كل شيء .

ويرى أغسطينوس أن النظام يسود العالم ؛ فالأدنى يخضع للأعلى ، والأعلى للأعلى منه ، وهكذا . كما أنه تفاولي ، إذ يقول إن فناء شيء هو سيء في حد ذاته إلا أنه نافع لنظام الكون العام وسيادة الجمال والانسجام فيه . كل شيء يفيد : ففناء هذا نفعٌ لذاك ، وخطيئة انسان تنبيه لذاك أو عظة أو عقاب ؛ وهكذا ...

11 - النفس ، خلودها :

هنا يكرر أغسطينوس المعروف وهو أن الانسان يتكوّن من نفس وبدن ، ولا يعيش إلا بهما معاً . لكن

أغسطينوس يتميز هنا بتشديده على وحدة النفس وعلى تعريفاتها بأنها جوهر (Sybstance) عاقل (Raisnable) صُنِعَ لكي يسوس بدنا. هذا التحديد الماورائي للنفس يجعل من الانسان نفساً قبل كل شيء. ولذا فالأخلاق والعلم بالحقائق يتعاكسان مع البدن. وهكذا فإنه يقول إن البدن ممتد، وهو شيء له طول وأبعاد، ويحتل حيزاً. بينما لا شيء من هذه الصفات يؤوب للنفس: فلا هي امتداد ولا ذات أبعاد. والدليل أنها تلم بوجودها حتى في الشك. إنها تحيا؛ وهي التي تمنح الحياة وتقوم بكل الوظائف في البدن.

يأخذ أغسطينوس في كتاب « المناجيات » ما يقوله أفلاطون عن خلود النفس. فهي حقيقة؛ والحقيقة لا تقبل الفساد والهدم. من جهة ثانية إنها ماهية؛ والماهيات لا تقبل عكسها ونقيضها. فحيث أن النفس تمنح الحياة، فمن المتناقض أن نعتقد بأنها تقبل نقيضها أي الموت. إنها خالدة لا تقبل الفناء. لكنه حتى وإن انطلق من نقطة أفلاطونية فقد عدل فيها وأقامها على مفهوم الإله، فأصبحت النفس واسطة بين البدن (وهي التي تحييه) وبين المثل (الأفكار) الالهية التي تحيها. لكن النفس ليست قسماً من الله، وإلا لكانت ثابتة ولا تقبل التحسن أو الانحطاط. خلقها الله من العدم، وهي مثيلة له. وهي تصعد صوبه وتتطلع إليه. ثم أنها مخلوقة قبل البدن. ولكن كيف تحل في البدن؟ أعتقد أغسطينوس بأن الله يخلق نفساً لكل جسم تكون خاصة به عندما يولد، وأن النفوس بعد أن وجدت من قبل في الله أرسلها الله إلى الأجسام لكي تحيها. وهناك عدة مواقف لأغسطين في هذا الصدد.

قال أفلاطون بوجود نفس تسوس هذا العالم وتدبره. وتساءل أغسطينوس عن وجود نفس تكون أسمى من النفس الانسانية يستخدمها الله لتوجيه وسياسة العالم. وقد وجد أن حل هذه المشكلة صعب، إذ لم يجد ما يساعده على ذلك في النصوص المقدسة أو مع ما يتوافق مع البدهة التي يقول بها العقل. ومهما يكن، فإن موقفه إزاء هذه المشكلة ليس واضحاً تماماً، أو أنه على الأصح لم يقبل تماماً بهذا المفهوم.

11 - مشكلة الزمن:

ما هو الزمن؟ يتساءل فيلسوفنا ثم يعطي الجواب قائلاً: إذا شئت أن أقول لك ما الزمن يصعب عليّ. مع أن الزمن مفهوم مألوف وشائع... عند أغسطينوس الزمن لا يُفهم بدون الأبدية؛ فهو دلالة عليها. الزمن يسيل، وهي تبقى ثابتة ويتولد منها. إن الزمن هو الأمس أو الآن أو الغد؛ بينما الأبدية أزلية لا تكف. السنون تمضي وتنطوي وأنت أنت لن تفنى كما يقول سفر الأمثال. سنوات الله ثابتة، وليست سوى يوم واحد. والزمن مخلوق. إذا كان هناك حقبة لم يكن فيها الزمن موجوداً فقد تمّ الخلق كله في لحظة كما قلنا، والحديث عن خلق في ستة أيام هو تفصيل لتلك اللحظة. لكن كيف نستطيع قياس الزمن؟ حلّ أفلاطون هذه المشكلة بأن قاسوا الزمن على الأفلاك التي لا تتوقف. أجابهم أغسطينوس أنها لو توقفت فلن يتوقف الزمن؛ والدليل مثلاً أن الشمس توقفت عند دُعاء انسان فبقيت واقفة مع أن الزمن كان يمضي. كذلك فإن نقل جسم من مكان إلى

مكان أو إلقاء قصيدة يتم حسب زمن نتحكم في مدته مع أنه يبقى هو هو ذلك الجسم أو تلك القصيدة. إن مقياس الزمن حسب أغسطينوس ليس هو ممتداً ولا فضائياً (حيزي / Spatial) بل هو في العقل أو في ما هو غير حسي وغير زمني. يتطلب الزمن منا وعياً به. وهنا نجد أغسطينوس لا يبعد عن مفهوم الديمومة في الفلسفة الحديثة. إن الزمن لا يؤلف ديمومة الانسان؛ فالزمن سجن له. والأبدية هي التي تجعلنا نفهم المعنى الحقيقي للزمن. وهنا يختلف أغسطينوس عن أفلوطين الذي دعا كي ننقذ النفس من سجن الجسد أن تعيد الصعود نحو الخالق باتجاه معاكس للذي سلكته عند هبوطها إلى هذا الجسم. عند أفلوطين النفس في صعودها نحو الكائن الأسمى أو إلى النبع تجد أن الزمن وهمّ محض من أوهام وعيها. أما أغسطينوس فبالعكس يرى أن الزمن حقيقة واقعية، فيه حدثت الخطيئة. والخطايا هي التي تولد في النفس العذاب الوجداني الناتج عن الماضي، والقلق من المستقبل؛ وهذا العذاب هو ما يحدث فيها الانقسام. وبالتالي فليس هناك سوى وسيلة واحدة تجعل النفس تنعتق من عبودية الزمن وهي أن تجد الزمن حقبةً للخلاص، وأن تمتلك انفعالاتها التي تُضعف طاقتها، أو أن تنزع نحو صعود يضعها فوق الحوادث ويجعلها ثابتة في زمن من الدعاء والصلاة والتأمل. واذن، لا يفهم الزمن بدون الأبدية؛ وقد قال أفلاطون وأفلوطين إن الحكم على الزمن يستلزم اللجوء للمطلق أي أنه لفهم الزمن يجب تخطيه؛ كما أنه لتحديد هذه الطاوله يلزم تخطيها، وحتى تعريفها الأكمل يستلزم المطلق. والأهم هو أن معنى الزمن عند أغسطينوس قد فهم بحسب عقيدتي التجسد والخطيئة. وذلك على نقبض المفهوم اليوناني الذي يقول إن الزمن هو حَلَقِي Cyclique، والأحداث تعود وتكرر هي أو ما يشبهها. وبذلك فالإنسان لدى اليونان شيء؛ وليس للزمن أهمية إذ لا جديد تحت الشمس كما قالوا. وهذا يجعل الذهنية متفائلة، أو كسولة، تعتقد بأن كل الأشياء تتنظّم من نفسها. أما الذهنية المتديّنة فهي تؤمن بحياة ثانية للإنسان وتؤمن بالشخص وبالخطيئة وبالحب؛ وذلك كله يناقض المعتقد اليوناني والهلنستي الذي يناقض عقيدة الخلق للزمن والعالم ويناقض عقيدة الخلاص في الدين. فالمفهوم الديني للزمن ينطلق من القول بالخطيئة وبحياة يعيشها المؤمن تعطي للزمن أهمية، ودلالة مساوية، وفعالية، واتجاهاً للأمام. هناك عودة حَلَقِيّة، فبالزمن يبلغ المؤمن السعادة، وليس الزمن سجنًا ينبغي الخلاص منه.

إن الزمن يقودنا إلى الأبدية، وليس هو كالوجد (extase) الأفلوطيني فرصة للتخلص من الواقع والجد. علينا أن ننتفع من الزمن لا أن نهمله كما هو الحال في الوجد والتأمل. المعنى الأوغسطيني هو معنى واقعي عياني وجودي؛ وهو بشكل خاص معنى أخلاقي. تلك هي الأصالة في فهم الزمن عند أوغسطين حيث المستقبل يعطي فعالية ومعنى ووجهة للإنسان وديمومته. وبعد فليس في الأوغسطينية فهماً تفاؤلياً كسولاً وصبغة آلية للزمن.

القسم الثاني ما بين الأوغسطينية والتصوف الاسلامي

1 - وحدة الحياة والفكر، الابتعاد عن البناء المحكم والتمذهب الصارم:

من الصعب أخذ أوغسطين، والتصوف في الفكر الاسلامي، داخل مذهب محكم البناء. فالفكر هنا وحياة المفكر لا ينفصلان؛ ومن ثمة تكثر إمكانيات تفسير النص وكتابه. ويصعب سَجْن التصوف، والأوغسطينية في نَسَق (نظام) دغماطي مقفل؛ ذاك أن الانسان يُعَمِل فكره على أنه لا على مذاهب فكرية وكتب وموضوعات خارجية. وبذلك يسهل اعتبار الصوفي عندنا، كأوغسطين في الفلسفة الوسيطية، مؤسس الشخصية، ومعلم الوجودانية (فلسفة الوجود). وذلك الأخذ للتصوف في الفكر الإسلامي، كالأخذ للأوغسطينية، ليس جذباً لمفاهيم قديمة باتجاه فلسفات معاصرة وتيارات فكرية راهنة. القضية إعادة تفسير لنص غني؛ وفهم بنظرِ راهن ومسلح بعباءات الفكر الراهن.

2 - انطلاقات من الوجود العيني، ومن القلق إزاء المصير الانساني:

ينطلق الصوفي من تساؤل حول معنى الوجود، وعن اتجاه الوجود. ويهتم، نظير أوغسطين، بالعيني وبالشخصي للانسان. وهكذا فإن الانطلاق هنا من الشخصية عينها، وبالتالي يتوجب فهم حياة أ. وهمومه كي نفهم الحقيقة والدعوة اللتين ينادي بها. ذلك أن أوغسطين أو الصوفي يبدو أنه هو من بنى شخصيته بيده، وهو من يعطي لنفسه وجهةً، ومعنىً، ويحدد هدفاً لمصيره ووجوده، ويبني بنفسه معتقدات يحياها ويتعزز بها. وهكذا فإن أمام الشخص الذي لا يعرف الانسان بأنه حيوان عاقل، أي الذي لا يبدأ مساره من ماهية الانسان أو من العقل والفكر. بالعكس؛ هنا تشديد على وجود الكائن، وعلى الشخصية البشرية المنغرس في الواقع والعيني وفي القلق والعجز أمام المستقبل. الانسان هنا إمكانية؛ وقدرة على أن يعطي نفسه هذا المعنى أو ذاك، وعلى أن ينفج على اعتبارات كثيرة، وعلى أن يختار بيده طريقه فيحقق لنفسه المعنى والطريق.

والتحول في التصوف الإسلامي، كما جرى في الأوغسطينية، دليل على أن الانسان يستطيع تجاوز ماضيه، وتخطي أنه القديمة وشخصيته المرفوضة اللامرغوبة. فهذا الصوفي الذي انتقل من المجون (أو من اللصوصية أو من الغنى وظلم الناس، الخ) إلى التصوف يظهر لنا قدرة الانسان على التخلص من الثقلات لوجوده ومن العوائق الماضوية أو الأخطاء والذنوب وما أشبه. وكان أوغسطين في الخطيئة؛ ومع ذلك بقي مؤمناً بالارتفاع إلى أعلى وإنقاذ النفس من الدرك الأسفل. وفعلاً استطاع صاحب «الاعترافات» أن يتخطى الخطيئة وأن يرتفع بنفسه القليقة المعذبة الباحثة عن السعادة وعن الحقيقة.

إن الحياة والفكر هنا، مثلما سبق، وحدة متعاضدة. الاثنان يتكاملان، ولفهم الواحد ينبغي اللجوء للآخر.

والكتابة هنا تعبر عن الذات وعن المعيش. الفكر معاناة، والمعاناة عيش في الواقع ومع الغير. وهنا يتخلى الانسان عن الأسى والمرارة، ويتخلى عن الخوف والخطايا في سبيل اكتشاف الوجود الذاتي داخل المصير. الأمل هنا شرارة، والمستقبل منفتح على ايمان بقدرة للإنسان على قبول ذاته وتغيير مسارها... لذلك كان التصوف في الفكر الاسلامي، وكانت الأوغسطينية، غير قائم على مداميك يُمنهجها صاحبها ويعقلنها بدون أن يحياها ويعاني أسرارها ويعاني سيروراتها. من ثمت يُقال إن الانسان، في ذلك المنظور، ليس شيئاً ولا متاعاً. إنه شخص ذو علائق مع غيره لا يقوم بدونها، وذو علائق مع الله تحي وتخلص أو تُنير بالرجاء والأمل الطريق في الحياة. وكذلك فإن ما يشدد عليه أيضاً التصوف في الفكر الاسلامي، كالذي تشدد عليه الأوغسطينية، هو الشخص في علائقه مع المطلق.. إن الله ليس قدراً أعمى، أو عالماً من المثل والمعاني أو جملة من الأفكار والمجرىات. الله يدعونا إليه، وأقرب إلينا من « حبل الوريد »؛ وهو رحمة ورحيم بمعنى أنه محبة وحياة. ومن هنا كانت الرحمة غير الشفقة، غير العلاقة القائمة على الكسب أو المصلحة. فالرحمة تنطلق من الرَّحْم حيث الأخوة والمساواة والعدالة بين عطاء الرَّحْم الواحد؛ وتنتهي بالرحان الرحيم أي بالله الذي هو تلك القيم معيوشة تدعونا إليها ونجذب صوبها ونسير باتجاه نداءاتها. لذلك كانت الرحمة هي المحبة معيوشة وغير مفروضة؛ وهي أيضاً مجموع قيم المساواة والاخاء والعدالة كما سبق. الأنت، حاليّاً، ليس غرضاً أو متاعاً أو ممتلكاً. إنه قيمة؛ خلقه الله الرحان غاية لا وسيلة لأخيه الانسان أو لآتمه المجتمع أو لأبيه الدولة. ليس الانسان أداة بيد أحد؛ يكفي واقعه المريب. وليس الانسان قائماً في المجرى؛ ولا هو فرداني. فلا ما هوية ولا مفروضة من المفروضات لها الحق في عزله أو تقييده. وإذا كان الأنت يكوّن الأنا ويسبقه ويشبهه ويعززه، فإن الأنت الأكبر الخالد لا يُضعف شخصية المؤمن ولا يطحنها بل هو ينمّيها ويناديها بصوت الارتفاع والتشبه به والصعود إليه.. ولنتذكر هنا شطحات الصوفيين من مثل: رابعة العدوية، البسطامي، الحلاج، السهروردي، الغزالي، الخ... تُستدعى أيضاً مفاهيم صوفية كثيرة كالاتحاد والوصول والفناء وجمع الجمع ووحدة الشهود ووحدة الوجود...⁽¹²⁾. الله في التصوف، وفي الأوغسطينية، هو الحقل الواسع للشخصية. وذاك حقل يحتوي على أخذ الانسان كائناً أمام الآخرين وكائناً في الوجود وفي العالم الواسع. وتلك النظرة للألوهية إغناء للأنا وللأنت ولعلائقنا نحن الاثنين معاً وفي مجتمعنا وفي الحضارة.

3 - حُكم وخلاصة:

رأينا أن الأوغسطينية، كالتصوف، مختلفة عما يسمى بالفلسفة في المعنى اليوناني للكلمة. فالمنطلقات إيمانية، ومن ثمت فهي مسبقة وتشد إليها أو تقيد الفكر وتقود إلى المنطق الأهوائي أو إلى منطق مُحدّد ومُحدّد. وليس المنهج عقلانياً صِرفاً؛ والعقل عاجز عن مجابهة مشكلات الانسان في الوجود والمصير؛ والفلسفة غير مؤهلة لخلاص الانسان أو لجعله يبلغ اليقين أو ينال السعادة.

ومن المعبر أيضاً أن الأوغسطينية والتصوف الاسلامي مزجا بين العقيدة الدينية والفكر الأفلاطوني أو الأفلاطونية المحدثة. ووفقا بين الايمان والعقل، وحتى بين الفلسفة الماهوية والتفكير الوجوداني. وانطلقا من فهم مسبق للإنسان والعقل والكون، ومن قيم مسبقة، ومن إقامة المذهب الفكري على اللاهوت والأخلاق. والله هو الأساس والغاية في تلك الحال، ومدينة الله أو «مدينة الأولياء» هي المدينة الكاملة والمجتمع الكامل.

إن التصوف في الفكر الإسلامي، كالحال في الأوغسطينية، يضع التأمل فوق العملي؛ ويدعو الانسان للاستمرار في الارتفاع باتجاه الألوهية. وهكذا فالأولوية معطاة للروحي وللمطلق وليس للزماني أو للعيني. ومن السير ملاحظة إهمال الواقعي والاجتماعي والعلائقي والمجتمعي في فكرنا الصوفي أو في الأوغسطينية. إن الفردانية، والمثالية (الاتجاه المثالي)، والنزعة التشاؤمية المغطاة بالرجاء والأمل، صفات ثلاث تميز التصوف والأوغسطينية اللذين، رغم تلك السلبيات، ما يزالان باقيتين. لعلهما يعيشان باستمرار وقوة ليس فقط في الفكر المتدين بل وأيضاً في الانسان والثقافة الانسانية.

إن الأوغسطينية فكر مرتكز على الخطيئة ومن ثمت على إمكانية قطع الذنوب والخلاص منه للارتفاع وبناء الحياة الأفضل الخالية من الإثم. هذا اهتمام بالانسان القادر أو الناضج؛ أخذ الإنسان ليس هنا أخذاً واقعياً وفي شروط مجتمعية وظروف محددة. إننا نستطيع الخلاص من الآثام أو التحرر من مشاعرها؛ ولكن ضمن حدود، وإلى درجة. بل ولا نستطيع ذلك دائماً؛ وليس ذلك باستطاعة كل انسان. فالإنسان لا يُدرس إلا في سلوكات وفي حقل. أما أن نحمل ارادته كل مسؤولية فتعسف وتحميل الانسان فوق الطاقة إذ ليس هو كائناً مجرداً معزولاً وليس هو إرادة فقط. ربما استطعنا اللجوء للأمل كي نخلص النفس. لكن الأمل فكرة أو مفهوم لا يكفي؛ وليس هو غير سندٍ ولا يغطي دائماً ضعفنا... والقيم الأخرى، في التصوف وفي الأوغسطينية، هي قيم القلب؛ واللاحاح على قيم القلب وحدها إضعاف للإنسان وتضييق للفكر. كذلك فإن اعتبار المحبة وحدها قيمة أولى ووحدية هو، في الأوغسطينية، إهمال لقيم أخرى في الانسان والعلائق والمجتمع ومن ثمت وقوع في مذهب واحد يجعل من فكرة واحدة قانوناً عاماً شاملاً ثابتاً أبدياً يكفي بنفسه وينفي غيره ويفسر كل شيء ويحتوي على كل شيء.

مرجعية مُقتَضبة:

- 1 - القديس أغوستينوس، الاعتبارات، ترجمة م. الخلو، بيروت، 1962.
- 2 - حنفي (حسن)، نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، بيروت، دار التنوير، 1981.
- 3 - زيعور (علي)، أوغسطينوس - مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسطية، بيروت، دار إقرأ، 1983.
- 4 - بدوي (عبد الرحمن)، فلسفة العصور الوسطى، ط 2، القاهرة، 1969.

الحواشي

- (1) يُكْتَب أيضاً بأشكال متعددة: أغوسطينوس، أوغطين، أوغوسطينوس، الخ. ونحن هنا نكتب اسمه أحياناً بالإشارة إلى الحرف الأول منه (أ.).
- (2) هي اليوم معروفة باسم سوق أهراس في الجزائر.
- (3) نقله إلى العربية الدكتور حسن حنفي (نَشْرَة دار التنوير، بيروت).
- (4) عتابة (في الجزائر) اليوم.
- (5) قارن: التجربة الإسلامية مع الثقافة الجاهلية.
- (6) الدونانية بدعة كان اتباعها أقوياء جداً في أيام أ.، وكان أولئك يلجأون للعنف والتقتيل ويتعنون أخصائهم بالخونة. في هيبونا كان لهم جماعاتهم المنظمة تسلب وتقتل. هددوا أوغطين بالموت، فدعاهم لمناقشته لكنهم لم يأتوا. آلف ضدهم بضعة كتب. لم ينفع معهم اللطف، وانتهوا بعد اجتماع ضم أساقفة منهم وأساقفة من الكاثوليك كانوا هم المنتصرين.
- (7) بيلاجيوس (360 - 424) ولد في أيرلندا وعاش في روما. التقى وأغوسطينوس في أفريقيا سنة 411. جاء إلى القدس. من أفكاره أن خطيئة آدم لا تنعكس على أحد، وأن النعمة ليست ضرورية لخلاص الفرد (هنا يُلاحظ تأثير الرواقية في فكر بيلاجيوس).
- (8) راجع: علي زيعور، العقلية الصوفية ونفسانية التصوف (بيروت، دار الطليعة)، أماكن متفرقة..
- (9) قارن: تجربة الفلاسفة في الإسلام في توفيقهم بين الدين وأفلاطون.
- (10) هنا يردُّ بعض المقرّطين أن لوغوس موجودة في العهد القديم، وأنها جاءت من الأنجيل عينها.
- (11) ذاك قول شهير في الفكر الوسيط مؤداه: أنا أؤمن كي أعقل. تلخصه الجملة اللاتينية المعروفة جيداً وهي: Credo ut intelligam.
- (12) علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم...، بيروت، دار الطليعة، صفحات كثيرة.